الدكتورة: خيرة بورنان السنة الثانية: قسم الفلسفة

محاضرات مقياس:

فلسفة التأويل في العصور الوسطى

المحاضرة رقم: 07

إشكالية تأويل النَّص الديني
(في المرجعية الفكرية الإسلامية)

تمهيد:

التأويل في مرجعيته الفكرية الإسلامية، هو مبحث أساسي من علوم القرآن والحديث النبوي الشريف واللغة على حد سواء، ناهيك على أنه وكان ولايزال الأداة الإيديولوجية لتبرير وضع سياسي معين على حساب آخر. ووفقا لهذا المنظور يكون للتأويل بعدين أحدهما إبستيمولوجي معرفي يتعلق بالنَّص الديني والآخر سياسي يعمل على توظيف النَّص على مقتضى الحال. وإن كان البعدان متداخلان في بنية الفكر العربي الإسلامي؛ فأرباب التأويل في الفرق الكلامية، من الخوارج إلى الشيعة إلى المعتزلة وغيرهم معروفون بمواقفهم السياسية من مشكلة الإمامة أو الخلافة.

إن الحركية التي عرفها التأويل لاحقا، لا تعني أن زمن الرسول الله صلى الله عليه وسلم كان خلوا من كل تأويل، فالرسول صلى عليه وسلم كان يفسر للصحابة رضوان الله عليهم ما استعصى على أفهامهم، وحين توفى صلى الله عليه وسلم، لم يكن هَمُّ القراءة التفسيرية للنص غائبا عنهم، وقد عبر علي رضي الله عنه عن خوفه من تضاد تأويلات القرآن مع إقراره بمشروعيتها، حين أمر ابن عباس رضي الله عنه بترك محاجّة الخوارج بالقرآن عندما قال له: «القرآن حمال أوجه». لكن الأمر لم يبق على حاله لما حدث تغير في بنية المجتمع العربي الإسلامي؛ تغير اثني وعرقي، تغير معرفي وعقدي ولّغوي، فكان العصر الوسيط مسرحا للتأويل والتأويل المضاد.

وإذا كان التأويل كمفهوم يتحدد في الفكر الإسلامي بمقابلة مفهوم التفسير. فما العلاقة بين التفسير والتأويل؟ وماهي ضوابط التأويل؟ وماهي أهم المجالات التي استخدم فيها التأويل؟

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

أولا: حول ثنائية التفسير والتأويل

1- تعريف التفسير:

يعرّف التفسير في اللغة بأنّه كشف وبيان المقصود من الإشكال الواقع في اللفظ، أمّا في الاصطلاح فهو العلم الذي يقصد منه بيان كلام الله سبحانه، وبيان الغاية والمقصد منه، استنادا لمجموعة من القواعد والضوابط والأصول. وقد عرفه الزركشي (ت: 794 هـ) في كتابه البرهان في علوم القرآن بأنّه «علم يعرف به فهم كتاب اللّه المنزّل على نبيّه محمّد (صلى الله عليه وسلم) وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللّغة والنحو والتصريف وعلم البيان واصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ». وينقسم إلى قسمين:

أ/ **التفسير بالمأثور:**

ويقصد به الاعتماد في تفسير القرآن على ما ورد في القرآن الكريم من التفصيل والبيان لبعض الآيات[1]، وتفسير القرآن بالحديث[2]. والرسول صلى عليه وسلم وفقا لهذا يعد أوّل مؤول للقرآن الكريم، قال الله تعالى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. [النحل: الآية 41]. بالإضافة إلى تفسير القرآن بالمقتضى، أي بما ورد عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم[3]. وقد بلغ التفسير بالمأثور حدوده القصوى مع فقه الظاهر وفقهاء الظاهر. أولئك الذين فهموا القرآن الكريم

---

[1]-- مثال تفسير القرآن بالقرآن قوله تعالى﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾]المائدة: 1]. فقوله تعالى﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾. فسر بالآية رقم 3 من السورة وهي قوله تعالى﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾. [المائدة: 3] الآية ومن أمثلة ذلك قوله تعالى﴿ نَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾. [المعارج: 19] فسر بالآيات التي بعده ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾. [المعارج: 20 – 22].

[2]- مثال المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾.[الأنعام: 82]. شق ذلك على المسلمين، وقالوا أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم)) :ليس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه ﴿ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:الآية13]. رواه البخاري ومسلم والترمذي.

[3]- من أمثلة تفسير الصحابة، تفسير قوله تعالى﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام: 109]، قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: قالوا لا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربَّك، فنهامهم الله أن يسبوا أوثانهم.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

والحديث النبوي الشريف، في ضوء قاعدة "لا اجتهاد مع النَّص"، وانصرفوا إلى ظاهر النص إيمانا منهم بأن الحقيقة تتجلى في الظاهر لا تجاوزه، وعدوا الحديث عن المجاز اللغوي ـ حجة فقهاء الباطن للأخذ بالتأويل ـ تجنيّ على اللغة العربية.

ومن أبرز دعاة هذا الفقه ـ بالرغم من الاختلافات أو الاستدراكات التي قد توجد بينهم ـ نذكر تمثيلا ل حصرا: الإمام أحمد بن حنبل(ت: 241هـ)، ابن حزم الأندلسي الظاهري(ت: 456هـ)، شيخ الإسلام ابن تيمة(ت: 728هـ) وتلميذه ابن القيم الجوزية(ت: 751هـ)، فهؤلاء وجدوا في رفضهم للمجاز مطية لرفض التأويل في دلالته المتأخرة، أي صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، مقررين أن التأويل الصحيح هو التأويل/ التفسير بالمأثور، وأن ما دونه(التأويل المجازي) ظاهر البطلان والفساد.

ومن النتائج المترتبة عن الأخذ بمنهجية فقه الظاهر والأخذ بالرأي والقياس كمصدر من مصادر الشريعة الإسلامية، عند ابن حنبل ـ مثلا ـ الذي خاض حربا بلا هوادة، كانت أشرس معاركها معركة خلق القرآن، وما بات يعرف في تاريخ الفقه الإسلامي بمحنة أحمد بن حنبل، من تلك النتائج، نذكر:

- الاعتقاد بأن القرآن الكريم كلام الله فقط؛ لا محدث كما ترى المعتزلة ولا قديم كما يرى خصومها،
- صفات الله التي وصف بها الله تعالى نفسه وأثبتها لذاته، على النحو الذي وردت فيه في النصوص والمأثورات لا مجال لتأويلها، وكذلك رؤية أهل الجنة.

ولقد صنّفت العديد من التفاسير في هذا النوع من التفسير، منها: « جامع البيان في تفسير القرآن» للإمام محمد بن جرير الطبري(ت: 310هـ)، و«المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لمؤلفه عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت: 541هـ)، و«تفسير القرآن العظيم» لمؤلفه عماد الدين بن كثير(ت: 774).

بـ/ التفسير بالرأي:

هو التفسير المُعتَمِدُ على النظر العقلي للآيات، والموازنة بين المعاني المحتملة لها في القرآن أو اللغة. ويجب توافر عدّة شروطٍ لِمن أراد أنّ يُفسر القرآن بالرأي، ومنها؛ أنّ يكون عالماً باللغة العربية

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

وفروعها، وعالما بالقرآن من حيث الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، وعالما بالحديث من حيث الصحة والضعف، والعلم بالفقه وأصوله. ويستدل لجوازه بالوجوه التالية:

- أن الله تعالى قد أمر بتدبر القرآن. قال تعالى﴿ كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾.[سورة ص: الآية29].

- إنَّ الرسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا لابن عباس رضي الله عنهما بقوله: « اللَّهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». حديث صحيح.

وهناك الكثير من الكتب التي أُلّفت في هذا النوع من التفسير، ومن أشهرها؛ التفسير الكبير ويعرف كذلك بـ(مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي(ت: 606هـ)، و(الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان) شمس الدين القرطبي(ت: 671هـ)، و(إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) لأبي السعود محمد العمادي(ت: 981هـ).

2- تعريف التأويل

عرفت كلمة تأويل تطورا بين رأي المتقدمين ورأي المتأخرين من علماء اللغة وواضعي المعاجم والقواميس؛ فإذا كان المتقدمون حتى بداية القرن الخامس الهجري، كالأزهري(ت: 370هـ) صاحب تهذيب اللغة، وابن فارس(ت 395هـ) مؤلف معجم مقاييس اللغة، وغيرهما، قد استعملوا كلمة تأويل بمعنى: التفسير، أي المرجع والمصير والعود؛ فإن المتأخرون ومن بينهم صاحب لسان العرب ابن منظور(ت: 711هـ) وصاحب القاموس المحيط الفيروز أبادي(ت: 817هـ)، قد أوردوا ــ إضافة إلى المعنى السابق ـ معنى آخر صار متداولا لدى غالبية الأصوليين والمتكلمين من المتأخرين، وهو الصرف والتحويل يقول ابن منظور: « المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إليه دليل لولاه لما ترك ظاهر اللفظ». ومن التعاريف التي كانت سببا في التطور الحاصل في دلالة التأويل، نذكر على سبيل المثال:

- **تعريف ابن حزم:** عرف ابن حزم الظاهري (456هـ) في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) التأويل بأنه « نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره وعما وضع له في اللغة إلى معنى آخر فان كان نقله قد صح ببرهان وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق وإن كان بخلاف ذلك اطرح ولم يلتفت إليه وحكم لذلك النقل

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

بأنه باطل». واضح من هذا التعريف أن ابن حزم الأندلسي وهو أحد المتمسكين بحرفية النصوص ومؤسس المذهب الظاهري في الفقه، يرفض التأويل ويرى فيه انحرافا عن النص وخروجا عن دلالته المباشرة الحقيقية، فقد أكد أن جملة " والراسخون في العلم يقولون" ليست معطوفة على الله، إنما هي مبتدأ وخبرها "يقولون" أما الواو فاستئنافية، والدليل على ذلك أن الله حرم تتبع المتشابه، وعدَّ طالبه زائغ القلب، فكيف لراسخيّ العلم أن يسعوا لطلبه، وهو درب من دروب الزيغ والظلالة؟

- **تعريف الجرجاني:** عرفه الشريف الجرجاني(ت: 816) في كتابه التعريفات بقوله:« التأويل في الأصل: الترجيع، وفي الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا للكتاب والسنة». فقوله تعالى ﴿ يخرج الحيّ من الميت﴾. يكون تفسيرا، إذا كان المراد إخراج الطير من البيضة، ويكون تأويلا إن تعلق الأمر بإخراج المؤمن من الكافر، أو العالم من الجاهل.

- **تعريف الغزالي:** عرف أبو حامد الغزالي(ت: 505 هـ) التأويل في كتابه المستصفى، حيث كتب: « التأويل عبارة عن احتمال يعضده دليل، يصير به أغلب الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر، ويشبه أن يكون كل تأويل للَّفظ عن الحقيقة إلى المجاز». واضح من هذا التعريف أن الغزالي يقر بالتأويل ملحقا إيّاه بالمجاز. وقد وضع شروطا للتأويل في كتابه (رسالته) قانون التأويل.

- **تعريف ابن رشد:** عرف الفيلسوف الوليد ابن رشد(ت: 595هـ)، التأويل في كتابه فصل المقال. حيث قال: « ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقة في الدلالة المجازة ـ من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوز ـ من تسمية لشيء يشبهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنة أو غير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازي». وسنتوقف ـ بالتفصيل في محاضرة لاحقة ـ عند موقف ابن رشد من التأويل.

- ويضاف إلى هذا تعريف عالم الكلام وعالم التفسير فخر الدين الرازي(ت:606هـ)، حيث قال:« التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح مع قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال». واضح أن هذا التعريف لا يختلف عما سبقه من تعاريف المتأخرين.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

ملاحظة:

إن ما تجدر الإشارة إليه هو حضور اللَّفظ تأويل في القرآن الكريم، سبع عشر مرة[4]، في سياقات مختلفة، في مقابل ذلك ورد لفظ التفسير مرة واحدة.

3- ضوابط التأويل وشروطه

التأويل نوعان مذموم(فاسد) ومحمود، هذا الأخير هو التأويل الصحيح، الذي يتحقق فيه مجموعة من الشروط والضوابط، منها:

أ/ ضرورة مراعاة المجال التداولي للنَّص المُؤوَّل؛ بالاضطلاع على لسان العرب من مفردات ومعاني، وما يحتمله السياق والتركيب؛ إذ قد يكون اللفظ محتملا للمعنى في سياقات أخرى، مثل تأويل النظر بالانتظار، فإنه يرد بهذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿يَومَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أنظرونا نقتبس مِن نوركم﴾ [سورة الحديد:13]، ولكنه لا يحتمله في سياق قوله تعالى: ﴿ وُجُوه يومئذ نَّاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَة﴾ [سورة القيامة:22 ــ23]، فتعدية الفعل بحرف الجر "إلى" ونسبة النظر للوجوه؛ يدل على أن المعنى هو النظر بالعين لا الانتظار.

ب/ معرفة أسباب النزول ومقتضيات الأحوال، وسياقات النص ومقاماته. وقد أضاف الأصولي الشاطبي شرط العلم بالمقاصد(في حق المجتهد)، ويتعلق بضرورة فهم الجزئيات في ضوء الكليات.

ج/ معرفة علم الناسخ والمنسوخ وقواعد أصول الفقه، التي تتحدث عن المقيد والمطلق، المتشابه والظاهر، العام والمطلق ...إلخ.

د/ ضرورة مراعاة تماسك النَّص واتساقه وانسجامه؛ ومعنى هذا ألا يتعارض الحكم المستنبط عن طريق التأويل مع التصور القرآني العام، فإذا كان التأويل خارجا عن هذا الضابط؛ أي مناقضا لعقيدة الإسلام ناسخا لأحكام ثابتة في القرآن؛ مشجعا نمو عقائد منحرفة، فلا يصار إليه، ويعد تأويلا فاسدا.

هـ/ يضاف إلى ما سبق ضابط في غاية الأهمية يتعلق باستقامة المؤول وسلامة عقيدته، وأن يكون من أهل التمحيص واليقين المعرفي، وليس ممن يشتبه فيهم من ذوي النظر الضعيف.

---

[4]- ورد لفظ التأويل في سبع سور، وهي: آل عمران(مرتين)، النساء(مرة واحدة)، الأعراف(مرتين)، ، يوسف(ثماني مرات)، يونس(مرة واحدة)، ، الاسراء(مرة واحدة)، الكهف(مرتين).

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

وللتأويل عند من يجيزه شروط متعددة أهمها:

- أن يصار إليه عند الحاجة الملحّة، وذلك بتوفر القرينة الداعية إليه.
- ألا يحمّل النصّ المؤوَّل أكثر مما يحتمل.

4- الفرق بين التفسير والتأويل

يتداخل في التداول اللُّغوي العربي القديم لفظ التفسير مع لفظ التأويل؛ حيث يتم إيرادهما على سبيل الترادف. لكن هناك من فرّق بينهما كالراغب الأصفهاني(ت:967 هـ)؛ فالتأويل أعم من التفسير« على أساس أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا، والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها. والتأويل يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل يستعمل في الجمل». ويذكر جلال الدين السيوطي أن التفسير يتعلق بالرواية والتأويل يتعلق بالدراية.

ويؤكد نصر حامد أبو زيد أن التوظيف الإيديولوجي للفظ التأويل حسم الصراع لسيادة لفظ التفسير في المتون الإسلامية على حساب لفظ التأويل، وكان لتوظيف قوله تعالى﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾» [آل عمران: الآية7] دور كبير في حسم الصراع لصالح التفسير، وتجريم التأويل ممارسة وأفقا.

ثانيا: مجالات التأويل

الثابت أن التأويل قبل أن يُقعد له نظريا وخاصة ضمن التأويليات العربية والإسلامية المعاصرة، قد حظي بمجال تداولي واسع النطاق، وذلك لارتباطه بالخطاب القرآني المعجز، ومن أهم هذه المجالات نذكر:

- التأويل الفقهي(وهو التفسير بنوعيه، وإن كانت الأفضلية ـ غالبا ـ للتفسير بالمأثور)
- التأويل عند النحويين وعلماء البلاغة
- التأويل عند علماء الكلام
- التأويل عند المتصوفة
- التأويل عند الفلاسفة

وسنركز في محاضرات تالية على نماذج من التأويل العقدي(علم الكلام)، والتأويل الصوفي، وفي محاضرة أخيرة سنتطرق إلى التأويل عند الفلاسفة، وتحديدا عند ابن رشد.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

1- التأويل عند علماء الكلام

من الثابت تاريخيا أن أحد الأسباب الرئيسة لنشأة علم الكلام الإسلامي، هو القرآن الكريم وما يتضمنه من آيات بعضها يشكل نطاق القطعي والمحكم، ويشكل بعضها الآخر نطاق المتشابه والظني، وهي مبعث النزوع إلى التأويل، الذي كان ولايزال محركا جوهريا للجدل أي التأويل والتأويل المضاد، وتبرير الإيديولوجيات، حسب اتساع أو ضيق نطاق المحكم والمتشابه.

ويميز الدارسون في علم الكلام بين اتجاهين؛ الأول منهما يأخذ بحرفية النَّص مسيجا إيَّاه بظاهر لا يتعداه، ضاربا صفحا عن إمكانيات دلالية أخرى، ومن هؤلاء المجسمة والمشبهة، والجبرية[5]؛ أما الاتجاه الثاني، فوجد في عبارة علي رضي الله« القرآن حمَّال أوجه»، وراح يتعمق في باطن النَّص، سابرا أغواره، فأتى هو الآخر بما لا يطيقه النَص، ولا يحتمله ولا يتحمله، كما هي الحال مع الشيعة الباطنية(الشيعة الإسماعلية)، التي شطت في آرائها بالمبالغة في التأويل من دون دلالة مطابقة، وهو ما يفيد إسناد الرأي بلا دليل صحيح، معتمدة التأويل المجازي، من دون ضوابط، ما عدا اثبات وجود إمام معصوم، وارث العلم السماوي، وورود النَّص عليه. ومن ذلك تأويلاتهم قولهم بأن عليا (رضي الله عنه) ولي كل مؤمن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وولايته واجبة بالنص مصداقا لقوله تعالى﴿ يا أيُّها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وأن لم تفعل ما بلغت رسالته﴾. واستنادا إلى ما ورد في حديث الغدير[6]. ووصل بهم شطط التأويل حد جعل الإمامة ركن من أركان الدين وأنها واجبة بالنَّص.

---

[5]- في موقف مخلف لما هو سائد هناك من يرى أن التّأويل ظهر في الفكر الإسلاميّ على يد "الجعد بن درهم"، وتلميذه "جهم بن صفوان"، والجعد – كما أشار إلى ذلك علي سامي النّشّار – هو: « أوّل من خاض هذا المعترك العنيف، ونادى بفكرة التّأويل العقليّ وأوّل روّاد التّفسير العقليّ في الإسلام»، لينتشر بعدها التّأويل بين مختلف الفرق على درجات متفاوتة، فعلم الكلام هو علم التّأويل وكلّ الفرق مؤوّلة ولا فرق بينها إلّا في الدّرجة؛ بل كان التّأويل ضروريًّا، كما يصرّح بذلك الغزالي في كتابه فيصل التّفرقة بين الإسلام والزّندقة، قائلًا: « وما من فريق من أهل الإسلام إلّا وهو مضطر إليه » .علي سامي النّشار، نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام، ج 1، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة 9، ص 329 وما بعدها.

[6]- **حديث الغدير**: هو الحديث الذي اتخذته الشيعة سندا بأحقية إمامة علي رضي الله عنه ومن تبعه من الأئمة الآخرين، وقد كان ذلك يوم خرج الرسول(ص) من مكة إلى المدينة، وفي الطريق نزل عليه الوحي في قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وأن لم تفعل ما بلغت رسالته، وكان النبى(ص) عند غدير خم فجمع الناس في يوم شديد القيظ ودعا عليا إلى يمينه وخطب فقال: « لقد دعيت إلى ربي وغني مغادركم من هذه الدنيا، وإني تارك فكتاب الله وعترتي وأهل بيتي، ثم أخذ بيد علي ورفعها وقال: ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟قالوا : بلى. قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم والِ من ولاه ، و عادِ من عاداه».

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

ولا يذكر التأويل في الفكر الإسلامي إلا ويذكر "أرباب التأويل" و"أهل التوحيد" كما يسمون أنفسهم أي المعتزلة، فالمطلع على مدونات علم الكلام المعتزلي على اختلاف طبقاته سيجد أن التأويل هو قطب الرحى عندهم، وأنه السبيل المثلى لدرء تناقض العقل مع النقل؛ فإذا حدث تعارض وجب رفعه عن طريق تأويل النص الديني حتى يصير معقولا، بناء على مسلمة أساسية في مذهبهم ألا وهي: قدرة العقل على معرفة الله قبل ورود النَّص، وأن معرفة الله واجبة عقلا، ومتى استطاع الإنسان الاستدلال على معرفة الله عقلا تمكن من فهم دلالات النص. فالعقل هو الذي تخضع له عملية التأويل التي تحاول الافلات من سياج النص، وهو أيضا فيصل التفرقة بين إيمان راسخ وإيمان غير راسخ، يجد أساسه في العرف والتقليد والموروث. وهكذا عرف الفكر العربي الإسلامي الوسيطي مع المعتزلة توجها جديدا في التأويل العقلي للقرآن، وهو تأويل لغوي في جوهره.

ويذكر ابن تيمية أن تقسيم الألفاظ الدالة على معانيها إلى حقيقة ومجاز هو اصطلاح حادث، يقع في كلام المتأخرين، والغالب أنه من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين. والمعتزلة أنفسهم لا ينكرون ذلك، ولا يروون فيه شبهة أو نقيصة، بل المجاز اللغوي (وعناصره: الكناية، والتشبيه، والاستعارة، والحذف) هو المنهج الأثير عندهم في فهم وتدبر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إذ يذكر القاضي عبد الجبار المعتزلي ما نصه:« إنه تعالى أراد أن يكون القرآن في أعلى طبقات الفصاحة ليكون علما دالا على صدق النبي صلى الله عليه وسلم. وعلم أن ذلك لا يتم بالحقائق المجردة، وأنه لابد من سلوك طريقة التجوز والاستعارة». وهذه الخصيصة تلزم اللسان العربي؛ فلئن كان أَبُو إِسْحَاقَ الإِسْفَرَايِيْنِيُّ[7] قد أنكر المجاز في لغة العرب، فإن المعتزلي ابن جني في كتابه الخصائص، يؤكد أن أكثر اللغة مجازا لا حقيقة، والأمر نفسه يؤكده عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز، إذ يقر أن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة. وهكذا كان المجاز عند المعتزلة « أداة ناجعة في استعادة نضارة المعاني والدلالات التي كانت مهددة بالشحوب». وفقا لما يرى نصر حامد أبو زيد.

---

* أَبُو إِسْحَاقَ، إِبْرَاهِيْمُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ بنِ مِهْرَانَ، الإِسْفَرَايِيْنِيُّ(ت:418هـ) الأُصُوْلِيُّ الشَّافِعِيُّ، كان فقيهًا متكلمًا أصوليًّا، وكان ثقة ثبتًا في الحديث، أقر له أهل بغداد ونيسابور بالتقدم والفضل، درّس بمدرسة نيسابور، وكان يلقب بركن الدين، وهو أول من لُقِّب من العلماء، وَمِنْ تَصَانِيْفِهِ كِتَابُ جَامع الخلِي فِي أُصُوْل الدِّيْنِ وَالرَّدّ على الملحدين.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

وبالتوافق مع المقتضى السابق، أي مركزية العقل، إذ هو الأساس الإبستمي لأصول مذهبهم وشرعية التأويل المجازي الذي يجد تسويغه اللساني لدى المعتزلة، في اعتبار المواضعة والاصطلاح أصلا للغة، وبالتبعية التأويل ليس إلا استجابة لقوانين المواضعة، أوَّل المعتزلة الآيات المتشابهات، فما « يتفق مع المفاهيم العقلية بدلالته اللغوية فهوم المحكم، وما يبدو متناقضا معها فهو المتشابه الغامض الذي لا سبيل لتقبل دلالته اللغوية المباشرة». واعتمدوا في ذلك على أمرين:

- ضرورة التفرقة بين المحكم والمتشابه
- رد المحكم إلى المتشابه باستخدام منهج التأويل المجازي.

ولقد صنف المعتزلة تفاسير على أصول مذهبهم، مثل: تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم(ت: هـ) المشهور بـ(تفسير أبي بكر الأصم)، وقد صفه القاضي عبد الجبار بأنه تفسير عجيب حسن، وذكر أن أبا علي الجبائي (ت:303هـ)لا يذكر أحداً في تفسيره إلا الأصم، التفسير الكبير للقاضي عبد الجبار المعتزلي، و« الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» المعروف اختصارا بـ«الكشاف» للزمخشري(ت: 538هـ) نسبة إلى زمخشر وهي بلدة بخوارزم.

ويظهر استخدام المجاز اللغوي لدى المعتزلة في تصديهم لثنائية التنزيه والتشبيه، وهي الوجه الآخر لثنائية المحكم والمتشابه، إذ أوّلوا الآيات القرآنية الكريمات المتشابهات في إطار تصورهم للذات الإلهية وكل ما يتعارض ومفهوم التوحيد، وما لا يليق ظاهرها بمقام الألوهية، ومن ذلك الآيات التي تدل على رؤية الله، والاستواء، وتشبه الله بالإنسان، أو تناقض العدل، أو توهم الجبر، أو فعل القبيح له إلخ.

وبالاتساق مع الأصل الأول في مذهبهم أي أصل التوحيد قرروا أن القرآن الكريم(كلام الله) مخلوق. ولما كان كلام الله في نظر المعتزلة هو ذات الله، فلا يمكن للقرآن أن يكون مُنزلاً لأن الله منزَّه عن خلقه ـ وفي هذا شرك به تعالى ـ وإنما القرآن « مخلوق مُحدَث في محل».

إن اعتماد المعتزلة لهذا المنهج والغُلوِّ في فيه، بل وسوء استخدامه أحيانا، كان سببا رئيسا في أن يناصبهم الخصوم العداء، وأن يكيلوا لهم التهم كالتعطيل، وأن يرموهم بالخروج عن الملة. لكن نصر حامد أبوز زيد يلتمس لهم العذر، ويرى في موقفهم النواة الصلبة لتأسيس التأويل العقلي في فهم النص الديني فالقرآن الكريم حين أشار إلى ضرورة رد المتشابه إلى المحكم، لم يحدد الآيات التي وصفها بالمحكمات

ولا تلك التي سماها المتشابهات، كما لم يذكر المفهوم الصريح لكل من هذين المصطلحين، فكان من الطبيعي أن يعتبر المعتزلة كل ما يدعم وجهة نظرهم محكم يدل بظاهره، وكل ما يخلف هذه الوجهة متشابها يحق لهم تأويله ورده إلى المحكم.

2- **التأويل عند المتصوفة**

التأويل الصوفي أو التأويل الفيضي ويسمى أيضا التفسير الإشاري أو التفسير بالإشارة ، هو « هو تأويل آيات القرآن الكريم بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا». وقد اختلف العلماء في جوازه.

- **طبيعة التأويل الصوفي**

يختلف التأويل الصوفي للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عن التأويل الفقهي، ذلك أن التصوف تجربة ذاتية وجدانية، أساسه العرفان والذوق وليس النقل، فـ« ليس من رأى بقلبه كمن سمع بأذنه». وهذا فرق أول. أما الفرق الثاني، فيتعلق بطبيعة العلم عندهم ومصدره؛ فإذا كان العلم عند الفقيه كسبيّ فهو عند المتصوف وهبيّ، لدنيّ. ولعل هذا ما قصده أبو اليزيد البسطامي لما كان يردد« أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علما عن الحيّ الذي لا يموت». وهو علم مستقره قلب العارف، الذي إذا ما انكشفت له الأسرار وتجلت له الأنوار حتى يصبح من أهل حق اليقين. وهؤلاء هم أهل العرفان من اجتهدوا في عبادة الخالق فوصلوا عن طريق المجاهدة والعبادة إلى معرفة حقائق النَص المخفي وراء اللفظ، ووصلوا إلى هتك حُجب الظاهر.

وثمة فرق (ثالث) جوهري بينهما؛ فإذا كان التأويل الفقهي مقصده الأساس البيان والتفسير والتجلية فإن التأويل الصوفي مقصده الآسن الخفاء والتعمية، إنه يتعمد الاخفاء أكثر من الإظهار، والتعمية أكثر من الوضوح، كتما للأسرار. لذلك يوصي ابن عربي السالك بكتم الأسرار وحجب الأنوار، قائلا:« حافظ على العلوم اللّدنية، والأسرار الإلهية، وإيَّاك وافشاء سر الربوبية». وجدلية الخفاء والتجلي هذه، تكشف عن علاقة الفقيه والمتصوف ـ على حد سواء ـ بالسلطة وبالمجتمع، وإن كانت في الغالب الأعم ما تحسم

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

لصالح الفقيه. وفي الحالات التي علا فيها صوت المتصوف بتآمر من السلطة كان الهدف منه تزييف وعي الناس والدهماء منهم على وجه الخصوص[8].

ويختلف التأويل الصوفي عن التأويل الفقهي، كونه يَندُّ عن منطق العقل الصارم، ويتحرر من سياج اللفظ والعبارة، فعوالم المتصوف الخفية ولئن كانت تسمح باتساع الرؤيا، إلا أنها في الذات الوقت تضيق الخناق على العبارة، فـ « كلما اتسعت الرؤيا ضاعت العبارة » فيما يقول محمد بن عبد الجبار النفّري(ت: 354هـ) في كتابه المواقف والمخاطبات.

- **مبادئ التأويل الصوفي وخصائصه**

أ/ أهم مبدأ في التأويل العرفاني أو الصوفي، هو استحالة التمييز بين الظاهر والباطن في الوصول إلى الحقيقة، معترضا في ذات الوقت على التأويل الفقهي المتمسك بالظاهر وعلى التأويل الكلامي المتمسك بالباطن. فالتأويل الصحيح، ومن خلاله الإيمان الصحيح هو حاصل الجمع بينهما، أو كما يقول ابن عربي مخاطبا السالك« اجمع بين الظاهر والباطن يتضح لك سرّ الراحل والقاطن».

بـ/ الدور الفاعل للذات في عملية التأويل؛ فقد تتضاءل ذات العارف حد تصير معه الصورة الأصغر للعالم الأكبر، وقد تتسع حدا تبتلع في جوفها العالم الأكبر. وعن دور الذات، أنشد ابن عربي(ت: 638هـ) في كتابه: الاسرا في مقام الأسرى، قائلا:

وغص في بحر ذات الذات تبصر عجائب ما تبدت للعيان

وأسرارا تراءت مبهمات مستترة بأرواح المعاني

ج/ وأهم خاصية لهذا النوع من التأويل أنه تأويل مجازي (رمزي إشاري)

يلجأ الصوفي في التعبير عن تجربته إلى الإشارة والرمز إما لغرض تقريب الفهم للأدنى مقاما من الصوفية أنفسهم، أو المتعاطف معهم المسلم لعلومهم، أو بهدف صون الأسرار والحفاظ عليها، حتى لا يتخذها العذول المنكر لأحوالهم سلاحا للهجوم عليهم بالابتداع لمجرد عدم ادراكه لمقاصدهم. يقول **أبو القاسم القشيري**(ت: 465هـ):« **وهذه الطائفة مستعملون ألفاظا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم**

[8]– وهو الدور الذي لعبه رجال الطرقية(وهم مؤسسة استعمارية) في عهد الاستدمار الفرنسي، لما أشاعوا بين الناس أن الاستعمار قضاء الله وقدره.

محاضرات مقياس:
فلسفة التأويل في العصور الوسطى

لأنفسهم، والاجمال والستر على من باينهم في طريقهم؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها». فعلمهم إشارة فإذا صار عبارة خفي.

ويلجأ الصوفي إلى الترميز أيضا لأن اللغة في نظره تبقى عاجزة عن احتواء كل ما يقذفه الذوق في قلبه من معان و أسرار ودلالات، وقد ذكر أبو نصر عبد الله السراج الطوسي (ت: 378 هـ) في كتابه (اللمع في التصوف) معنى الرمز قائلًا: «**الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله**»، وهذا يعني أن عبارات الصوفية لها في الغالب معنيان، أحدهما: يستفاد من ظاهر الألفاظ. والآخر: يستفاد بالتحليل والتعمق. وهو المعنى الخفي.

وبالمحصلة، فإن الرمز عند الصوفية:

- معين لا ينضب في حفظ الأسرار والمكاشفات.
- معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله.

ومن أمثلة تأويل المتصوفة للقرآن الكريم نتوقف عند قول الله تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. [سورة يس: الآيات 12–17]. فهذه الآيات وما تلاها لم تجئ حسب معناها الظاهر وهو الصحيح المُراد بلا ريب، إلا لتقصَّ علينا للعبرة والذكرى نبأ أصحاب القرية الخاطئة الضالة مع الرسل الثلاثة الذين أرسلهم الله إليها فكذبوهم، ولكنَّ المتصوفة تركوا هذا المعنى الظاهر وزعموا أنَّ لها معنى خفيًّا باطنيًّا، فرأوا أنَّ القرية ليست إلا الجسم، وأنَّ الرسل الثلاثة هم الروح والقلب والعقل، وهكذا أوَّلوها كلها تأويلًا مجازيًّا لا دليل ولا قرينة عليه.

ومن بين التفاسير الصوفية نذكر:

- كتاب حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي النيسابوري، (ت:412هـ).
- تفسير محيي الدين بن عربي، (ت:638هـ).
- تأويلات القرآن، لعبد الرازق القاشي أو القاشاني السمرقندي، (ت: 887هـ).